(٢)

غواية بونابرت للأقليات.. ومحاولات سلخ مصر عن العروبة والإسلام

وإذا نحن نظرنا ـ تحديداً ـ إلى عامل «الغواية الاستعمارية» لشرائح من أبناء الأقليات الدينية ـ فى الشرق الإسلامى ـ بعصرنا الحديث.. فإننا نستطيع أن نشير إلى «محطات» فى التوترات التى صنعتها هذه الغواية ـ بعد قرون من مثيلاتها التى صنعتها الغزوة الصليبية [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] فى تاريخنا الوسيط[١].

* فبونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] الذى قاد الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م] والشام.. والذى حلم بإعادة امبراطورية الإسكندر الأكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٣ق.م] الشرقية.. وتحقيق حلم الملك الصليبى القديس لويس التاسع [١٢١٤ ـ ١٢٧٠م].. قد أعلن.. وهو فى طريقه من مرسيليا إلى الإسكندرية ـ أنه سيجند ٢٠,٠٠٠ من أبناء الأقليات المسيحية فى مصر والشرق، ليتخذ منهم مواطىء أقدام لغزوته وامبراطوريته الاستعمارية الفرنسية..

ولقد أثمرت غوايته الاستعمارية هذه ثمرات مرة، عندما سقط فى مستنقعها قطاع من الأرثوذكس المصريين ـ الأقباط[٢] ـ الذين كونوا «فيلقًا قبطيًا» ضم ألفين من شباب الأقباط ـ تزيا بزى الجيش الغازى، وحارب معه ضد الشعب المصرى.. تحت قيادة «المعلم» يعقوب حنا [١٧٤٥ ـ ١٨٠١م] ـ الذى أصبح «جنرالاً» فى الجيش الفرنسى

(١) انظر كتابنا [الدراما التاريخية وتحديات الواقع المعاصر] طبعة القاهرة ـ مكتبة الشروق الدولية ـ سنة ٢٠٠٥م.

(٢) القبطى هو المصرى.. فالمسلمون المصريون هم: أقباط مسلمون. والمسيحيون ـ النصارى ـ المصريون هم: أقباط مسيحيون.. لكننا ـ مجاراة للخطأ الشائع ـ سنستخدم مصطلح الأقباط للتعبير عن النصارى المصريين..

الغازى ـ والذى يسميه الجبرتى [١١٦٧ ـ ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢م] ـ وهو مؤرخ العصر ـ: «يعقوب اللعين»!..

ولقاء هذه الخيانة ـ التى تركت جراحات عميقة فى الصف الإسلامى.. وفى الوحدة الوطنية ـ والتى بدأت مسيرة السقوط فى غواية التبعية للاستعمار الغربى، والمراهنة على دعمه لتغيير هويةالأمة وانتمائها الحضارى.. أعطى بونابرت وخلفاؤه للأقلية النصرانية ـ من القبط والشوام ـ بمصر ـ الوزن الأكبر فى إدارة شئون البلاد تحت الاحتلال الفرنسى.. كما عهد الجنرال «كليبر» [١٧٥٣ ـ ١٨٠٠م] ـ الذى خلف بونابرت فى قيادة الحملة وحكم مصر ـ إلى المعلم يعقوب حنا:

«.. أن يفعل بالمسلمين ما يشاء!.. فتطاولت النصارى، من القبط ونصارى الشوام، على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانًا، كما صرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»![١]..

وبعد مشاركة «الفيلق القبطى» للفرنسيين الغزاة فى إبادة سبع الشعب المصرى ـ [٣,٠٠٠,٠٠٠ من شعب كان تعداده أقل من ٣,٠٠٠,٠٠٠] ـ احتفلوا بانتصارات بونابرت على أهل «غزة» [١٢١٣هـ ـ ١٧٩٩م].. وكما يقول الجبرتى:

«.. فأظهر النصارى الفرح والسرور، فى الأسواق والدور، وأولموا فى بيوتهم الولايم، وغيروا الملابس والعمايم، وتجمعوا للهو والخلاعة، وزادوا فى الشناعة»![٢].

وفى حماية المستعمر الفرنسى، وفى ظلال سيوفه، أظهروا الكيد للأغلبية المسلمة.. وبعبارة الجبرتى:

«.. فترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود، فركبوا الخيول، وتقلدوا السيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس، ومشوا بالخيل، وتلفظوا بفاحش القول، واستذلوا المسلمين، مع عدم اعتبارهم للدين، إلى غير ذلك مما لا يحيط به الحساب، ولا يسطر فى كتاب، ولا حول ولا قوة إلى بالله العلى العظيم»![٣].

---

(١) الجبرتى: [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] جـ ٥ ص ١٣٤، ١٣٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.
(٢) الجبرتى [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس] ص ١١٧. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.
(٣) المصدر السابق. ص ١١٢.

*ولم تنته هذه الغواية ـ وهذا السقوط ـ بهزيمة الحملة الفرنسية على مصر، وجلاء جيشها [١٢١٦هـ/ ١٨٠١م]. . ورحيل المعلم يعقوب حنا وزمرته مع جيش الاحتلال. . وإنما خلف يعقوب ـ عقب هلاكه ـ من سموا أنفسهم «الوفد المصرى» ـ أى اللاعربى واللاإسلامى ـ الذى ذهب إلى فرنسا ـ بقيادة «نمر أفندى» ـ عارضًا العمالة على الامبراطورية الفرنسية، حتى بعد هزيمتها! . . ومعلنًا عن استعداده لتطبيق القانون الفرنسى بمصر، بدلاً من القانون الوطنى والفقه الإسلامى! . . بل وعارضًا تسخير الكنيسة الأرثوذكسية المصرية لتحقيق حلم فرنسا الكاثوليكية اختراق إفريقيا دينيًا! . .

وفى هذا الصدد، عرض هذا «الوفد المصرى»:

«الولاء لبونابرت». . وقالوا له: «إن الوفد المصرى، الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك، سيشرِّع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا. . وإن الجمهورية الفرنسية اليوم ـ إذا أرادت ـ يمكنها عن طريق الأمة المصرية، التى ستكون موالية لها، مدّ نفوذها نحو أواسط إفريقيا، وبذلك تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية»![1].

* وفى الوقت الذى كان هذا «الوفد المصرى يراهن على فرنسا المهزومة. . كان المعلم يعقوب ـ قبيل هلاكه ـ قد كتب «وصيته» إلى إنجلترا الاستعمارية، لتحل محل فرنسا فى ضم مصر إلى السيطرة الغربية، لتغيير هوية مصر، وانتمائها، وعلاقاتها الإقليمية والدولية. . فطلب ـ فى هذه «الوصية» ـ التى بعث بها إلى وزير الحرب الإنجليزى ـ أن ترث إنجلترا مصر من الدولة العثمانية. . وقال:

«توشك الإمبراطورية العثمانية على الانهيار، ولذا يهم الإنجليز، قبل أن تقع الواقعة، أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه، فيحققوا مصالحهم السياسية.

وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر ـ كما استحال ذلك من قبل على فرنسا ـ فيكفى أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا، صاحبة التفوق فى البحار

(١) د. أحمد حسين الصاوى: [المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة] ص ١٢٩، ١٣٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦م.

المحيطة بها» إن بريطانيا لها من سيادتها البحرية ما يجعلها **تستأثر بتجارة مصر الخارجية، ويضمن لها بالتالى أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها. . إن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا. . ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر، وهذا الاستقلال لن يكون نتيجة وعى الأمة، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبرى تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء! . .**

وللدفاع عن هذا الاستقلال. . فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوة أجنبية تعمل لحسابهم، يتراوح عددها بين ١٢,٠٠٠ و١٥,٠٠٠ جندى، يكفون تمامًا لصد الترك عن الصحراء، ولسحق المماليك داخل مصر. .»[1].

فالوصية اليعقوبية، هى باستقلال مصر عن ذاتها الحضارية، وماضيها وحاضرها الإسلامى ومحيطها القومى والحضارى ـ أى الانسلاخ عن العروبة والإسلام ـ. . وإخضاعها لنفوذ إنجلترا، لتكون موالية لبريطانيا، التى تستأثر بتجارتها الخارجية. . هذا «الاستقلال» الذى تفرضه القوات الأجنبية على المصريين «المسالمين الجهلاء»! . . كما قال المعلم يعقوب اللعين! . .

هذا عن جبهة الأقلية الأرثوذكسية بمصر، فى أولى محطات السقوط فى غواية الاستعمار الغربى ـ فى عصرنا الحديث ـ. . .

* * *

* وعلى جبهة الأقليات اليهودية. . رمى بونابرت حبال هذه الغواية الاستعمارية أيضًا. . وذلك عندما أذاع ـ وهو على أسوار عكا [١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م] ـ نداءه إلى يهود العالم، طالبًا منهم التأييد والدعم لطموحاته الاستعمارية فى الشرق الإسلامى، لقاء إعادة زرعهم فى فلسطين. . فقال فى هذ النداء:

«أيها الإسرائيليون، **أيها الشعب الفريد**. . انهضوا بقوة، أيها المشردون فى التيه. . لابد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت العبودية، وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة. .

---

(١) المصدر السابق. ص ١٢٣ ـ ١٢٥ ـ ملحق رقم ٦.

إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل. . إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به. . قد اختار القدس مقرّاً لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة، التى استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها. .

يا ورثة فلسطين الشرعيين، إن الأمة الفرنسية. . تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء»![1].

تلك كانت «المحطة الأولى» من محطات الغواية الاستعمارية للأقليات الدينية الشرقية فى عصرنا الحديث.

* * *

(١) محمد حسنين هيكل: [المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ـ الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية] ـ الكتاب الأول ـ ص ٣١، ٣٢ ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.

obeikandl.com